كيف نقرأ التاريخ...؟!

رأفت صلاح الدين
باحث ومدرس بالمعاهد الأزهرية
جمهورية مصر العربية
rafat110@hotmail.com

إن التاريخ هو ذاكرة الأمم ، لاتستطيع أمة أن تعيش بلا ذاكرة ، ودراسة التاريخ واستخراج الدروس والعبرمنه هو دأب الأمم القوية. "فالتاريخ مرآة الشعوب وحقل تجارب الأمم ، فى صفحاته دروس وعبر للمتأملين ، لأنه نتاج عقول أجيال كاملة ، والأمة التى تهمل قراءة تاريخها لن تحسن قيادة حاضرها ولاصياغة مستقبلها ".[١]

وخير شاهد على ذلك أن الأمم التى ليس لها تاريخ تحاول أن تؤلف لنفسها تاريخاً ، ولو مختلقاً ، حتى يكون لها ذكر بين الأمم .كما هو حال الدولتين اللقيطتين أمريكا واسرائيل . * فواعجباً لأمة لها تاريخ عريق مشرف تخاصمه ولا تستفيد منه ، وتعتبره ماضياً زال وتراثاً باليا. يقول أرنولد توينبى فى محاضرة ألقاها فى القاهرة فى الستينيات من القرن الميلادى المنصرم :

" إن الذين يقرأون التاريخ ولا يتعلمون منه أناس فقدوا الإحساس بالحياة ، وإنهم اختاروا الموت هرباً من محاسبة النفس أو صحوة الضمير والحس ...!!".[٢]

يقول شوقى :

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر ضل قومٌ ليس يدرون الخبر

فهذه دعوة للأمة المسلمة ذات التاريخ العريق أفراداً وجماعات . لقراءة تاريخها قراءة واعية تستخرج منه الدروس والعبر ، وتستخرج منه منهاجاً للحركة والفهم ، يفيدها فى مسيرة نهضتها واستشراف مستقبلها ، حتى يعود للأمة مجدها وتستعيد مكانتها وعزتها أمام الأمم. أى أن القراءة المطلوبة هى قراءة متدبرة ، تقف أمام أحداث التاريخ الإسلامى متفحصة مدققة ، ليست سردا تاريخيا للأحداث بقدر ماهى تنقيب بين أسطره على مدلولات هذه الأحداث والوقائع ، وعلاقتها بواقعنا المعاصر .لذا نستطيع فى هذه العجالة أن نقف أمام بعض الدروس لعلها تكون دافعا للأمة لكى تسعى لضبط مسيرتها بالسنن الربانية التى وعاها أسلافنا فضبطت مسيرتهم وحفظت جهادهم . لكن قبل ذلك نوضح أمرين :

أولهما: التاريخ ليس سرداً للأحداث ولا تسجيلا للوقائع والأقاصيص ، ولكنه تفسير لكل هذه الأحداث والوقائع ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها ، وتجعل منهم وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان ".[٣]

ويعرف ابن خلدون التاريخ فيقول:" ...فان التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليها الركائب و الرحال ، وهو فى ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق ".[٤]

فالتاريخ ليس سرداً مجرداً للاحداث ، لكنه فى حقيقته وقوف أمام تلك الأحداث لتحليلها وتفسيرها والربط بينها واستخراج الدروس التى يمكن الاستفادة منها فى حاضرنا ومستقبلنا.

ثانيهما: أن الإسلام اهتم بدراسة التاريخ عن طريق:

١.وردت فى القرآن إشارات كثيرة إلى أهميه دراسة سير الأولين والتأمل فيها وأخذ العبر منها: قال تعالى{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}آل عمران/١٣٣ وقولة { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ} يوسف/١١١. وقولة تعالى {...فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ..} الاعراف /١٧٦

٢.وفى السُنة :

حيث " أعلم الرسول .صلى الله عليه وسلم .المسلمين بحوادث ستقع فى المستقبل حتى يكونوا على وعى بالحاضر والمستقبل " [٥] مثل فتح القسطنطينية وروميه ومثل المعارك التى ستقع مع اليهود والنصارى وأحداث الساعة ... وغيرها .

٣-كذلك اهتم القرآن بقصص الأنبياء للتسلية والتسرية عن النبي ﷺ وكذلك لاستلهام الخط الواصل فى الصراع بين الحق والباطل ، كما ظهر ذلك من سرد قصص نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ... وغيرهم من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

٤.كذلك اهتم علماء السلف بالتصنيف فى التاريخ لخدمة هذه الأمة أمثال الإمام الطبرى وابن كثير والذهبى وغيرهم.

ثم نأتى إلى أهم الدروس المستفادة من التاريخ:

أولاً: الإتعاظ والإعتبار بالقرون الخوالى

"... لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ... " . يوسف / ١١١

الغرض الأساسى من دراسة سير الغابرين هو أخذ العبرة والعظة لما حدث معهم ، فقد حدثنا التاريخ كثيرا عن أمم غابرة وماحدث لها من ظهور ثم سقوط وهلاك ، فكان لزاما علينا دراسة سيرهم لنقف على أسباب ظهورهم وسقوطهم ونستخرج النتائج ونربط بينها ."إن السر المختوم فى القرآن هو أن نعتبر بالماضى ، وأن نتعظ بالقرون الخوالى وأن نتدبر حركة التاريخ ونشوء الحضارات ونتأمل الأسباب ، ونربط بينها وبين النتائج " [٦]

كذلك يتحتم علينا دراسة تاريخ الأمة المسلمة منذ نشأتها وظهورها فى الأرض وانتشارها وسيطرتها على أكثر من نصف الكرة الأرضية ، ثم انكماشها رويدا رويدا ، وما استتبعه ذلك من سقوط الخلافة وانتهائها ، وما آل إليه الأمر فى النهاية ، من تنحية شرع الله عن حكم الأمة واستيراد القوانين الوضعية بدلا عنه ، ثم تمزيق جسد الأمة ، والتمكين لأعداء الإسلام وعملائه فى ديار المسلمين. أى يجب علينا دراسة خط إنحراف الأمة منذ ظهورها وحتى سقوطها ، وذلك لأخذ العبرة والعظة ، ودراسة عوامل الظهور ومقوماته ، ثم أسباب السقوط ونتائجه ، واستخراج الدروس والعبر من كل ذلك .

ثانياً: استخراج الدروس التربوية من التاريخ

ارتبط هذ الدين منذ ظهوره واستخلافه فى الأرض بقيم أخلاقية وتربوية ، استطاعت أن تصوغ أخلاق وسلوكيات هذه الأمة ، وأن تغير من واقع حياتها ، لنتأمل حال العرب قبل الإسلام وبعده. فقد استطاع الإسلام أن يصوغ ويغير من أخلاقهم وقيمهم وسلوكياتهم وتصوراتهم ،فتغيروا من حال الى أحسن حال .

لذا الإستفادة من التاريخ فى استخراج هذه الدروس التربوية ، ومعرفة كيف استطاع الإسلام أن يغير من واقع هؤلاء القوم ، حتى يكون ذلك منهاجا لنا فى تغيير القيم والتصورات الدخيلة على واقع وحال الأمة الإسلامية فى وقتنا الحالى. كذلك لنستفيد من هذه الدروس التربوية فى إيجاد منهجا تربويا أصيلا يستطيع أن يخرج لنا أجيالا راشدة وصياغتها الصياغة الإسلامية المطلوبة.

يقول الأستاذ/ محمدقطب : " ...كل أمة من أمم الأرض تعتبر درس التاريخ من دروس التربية للأمة ، فتصوغه بحيث يؤدى مهمة تربوية فى حياتها ، فإن من بديهيات التوجيه التربوى لدراسة التاريخ الإسلامى أن يخرج أجيالا مسلمة تعرف حقيقة دينها وتستمسك به وتعمل على إحيائه فى نفوسها وفى واقع حياتها ". [٧]

ثالثاً: تتبع السنن والقوانين الربانية التى تحكم هذا الكون

أوجد المولى عز وجل سنن وقوانين ربانية تحكم هذا الكون ، وتحرك آلياته ، حتى لاتترك مجالا للصدفة أوالحظ ، هذه السنن تجيب لنا عما يحدث فى الكون وفى الحياة من أحداث.

يقول الأستاذ/ محمد قطب : " ...الدرس التربوى الأكبر المستفاد من تتبع أحوال هذه الأمة فى صعودها وهبوطها ورفعتها وانتكاساها ، هو تتبع السنن الربانية من جهة ، وأنها لا تحابى أحدا ، ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحدّ. وإبراز الحقيقة الرئيسية فى حياة هذه الأمة من جهة أخرى أنها لا تمكن فى الأرض إلا وهى مستمسكة بدينها ، عاملة بمقتضيات التكليف الربانى لها ، وأنها كلما حادت عن الطريق أصابتها العقوبة الربانية فزال عنها التمكين ، وأصابتها النكبات. وأنها من جهة ثالثة لا تبرأمن نكبتها إلا بالعودة الصادقة إلى الله عز وجل ، وأنها حين تعود لاتكون ممكنة فى داخل حدودها فحسب بل تكون فى مقام التوجيه والشهادة على البشرية ...". [٨]

ويقول الدكتور ماجد عرسان الكيلانى :" ...فى التاريخ قوانين تحكم الأحداث والظواهر ، وتوجهها الوجهة التى يقتضيها منطق القانون ، والخروج على هذه القوانين أو الإنسجام معها هو كالخروج على قوانين النفس والغذاء وقوانين ضغط الغازات والإنسجام معها ، والذين يتقنون فقه هذه القوانين وتطبيقها هم الذين يستمرون فى الحياة ويتفوقون فى ميادينها .

وهذا يعنى أن الأمة التى يتولى زمام أمورها "فقهاء" يفقهون قوانين بناء المجتمعات وانهيارها ، ويحسنون تطبيق هذه القوانين ، فإنهم يقودون أممهم إلى التقدم والنصر لا محاله. وأما الأمة التى يتولى زمام أمورها "خطباء" يحسنون التلاعب بالمشاعر والعواطف ، فإنها تظل تتلهى بالأمانى التى يحركها هؤلاء الخطباء ، حتى إذا جابهت التحديات لم "يفقهوا" ما يصنعون ، وآل أمرهم إلى الفشل ، وأحلوا قومهم دار البوار". [٩]

لذا فالمطلوب منا حيال هذه السنن والقوانين هو تتبعها وإدراكها ، والإستفادة منها فى فهم الواقع ، وتسخيرها من أجل حدوث النهضة المطلوبة للأمة.

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة : " من الأولويات المطلوبة فى الفهم والتفكير الإسلامى اليوم إدراك أمر السنن والأسباب والأقدار ، وامتلاك القدرة على التعامل معها وتسخيرها ، ودخول حلبة الصراع الحضارى بميادينه المتعددة بأدواته ووسائله النوعية المطلوبة ، وذلك أن دخول أى معركة بدون أسلحتها الفاعلة سوف يؤدى إلى الخسارة الفادحة ". [١٠]

رابعاً: معرفة مخططات أعداء الإسلام فى محاربة هذه الأمة

الصراع بين الحق والباطل من سنن الله فى هذا الكون ، وهو مستمر إلى قيام الساعة {...ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ... } البقرة / ٢١٧. يتجلى هذا فى وقوف أعداء الإسلام يهودا ونصارى ومشركين لهذه الأمة وإلى يومنا هذا بالمرصاد. حتى قبل بعثة النبى — صلى الله عليه وسلم — ما قام به بحيرا الراهب وتحذيره لأبى طالب من اليهود ، خوفا علي محمد — صلى الله عليه وسلم -وهو

مازال طفل[11] . ثم تتابعت فصول المؤامرات وأحداثها مع البعثة وإلى الآن ، وما أمر الحروب الصليبية عنا ببعيد ، وما حدث لمسلمى الأندلس كذلك ، وما تآمرهم على الخلافة العثمانية واسقاطها عنا ببعيد.

وفى هذه الأيام ما حدث فى البوسنة وكوسوفا على يد الصرب الصليبيين ، وما يحدث للفلسطينيين على أيدى اليهود وبمساعدة الأمريكان ، الذين يعيثون فى الأرض فسادا فى أفغانستان والعراق. ومايعيشه الشيشانيون على يد الروس ، ومايحدث لمسلمى تركستان على يد الصين ، ومسلمى الهند على يد الهندوس ، وفى الفلبين ، كذلك ما حدث على يد الباطنيين المجوس فى القديم والحديث , وما يحدث فى كل بلاد المسلمين ، هو امتداد لهذا العداء التاريخى الحاقد ، وهدفه هو القضاء على الإسلام والمسلمين.

فدراسة التاريخ تحذرنا من مخططاتهم التى تنخر فى جسد الأمة ، فيجب علينا دراسة هذه المؤمرات وتتبع تاريخها حتى تكون مرشدا لنا فى تعاملنا معهم ، وتعلمنا الحذر من دسائسهم وحقدهم.

هذه بعض الدروس المستفادة من دراسة تاريخنا الحافل بالبطولات حتى نستطيع قراءته قراءة واعية نستخرج منه الدروس والعبرالراشدة لنا فى طريق التغيير المنشود. والدروس والعبر من تاريخنا كثيرة ولكننا اكتفينا بهذه الأمور لأهميتها وحتى لا يطول بنا المقام.

الهوامش

(١) محمد حامد الناصر ،الجهاد والتجديد فى القرن السادس الهجرى ، الكوثر ص ٥.
(٢) عبد الودود شلبى ، افيقوا يامسلمين قبل أن تدفعوا الجزية ، السعودية للتوزيع ، ص ١٠.
(٣) سيد قطب ، فى التاريخ فكرة ومنهاج ، دار الشروق ، ط ١٠ ،ص ٣٧.
(٤) عن كتاب ايعيد التاريخ نفسه ؟ ، محمد العبدة ، المنتدى الاسلامى ، الغلاف.
(٥) المرجع السابق ، ص ٥ بتصرف.
(٦) أحمدالقديدى ، الاسلام وصراع الحضارات ، كتاب الامة ٤٤ ، ص٦٧.
(٧)محمدقطب ، كيف نكتب التاريخ الاسلامى ، دار الشروق ، ط ١ ، ص٢٨ .
(٨) نفس المرجع ص ٢٩.
(٩) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، المكتبة الاسلامية ، ص ٢٦٧.
(١٠) القديدى ، مقدمة كتاب "الإسلام وصراع الحضارات" ، ص ١٦-١٧.
(١١) انظر الرحيق المختوم ، طبعة مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ص ٥٤

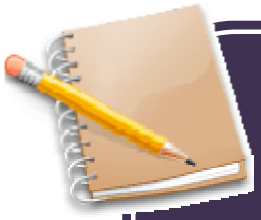

مشروع مفكرة التاريخ

الفكرة

عمل مطوية تاريخية نصف شهرية كحد أقصى ، تركز على الأحداث والشخصيات والمعالم التاريخية لكل شهر على حدة ، ثم نسقطها على الواقع ، ونخرج في النهاية بدروس وعبر عملية من العرض التاريخي ، يستمر العمل فيها حتى نهاية العام الهجري إن شاء الله ، ثم نجمع كل الاثنتي عشرة مطوية لعمل مفكرة تاريخية سنوية تختزل كل المعلومات ، مدعومة بالصور ، والإخراج المتقن بإذن الله .

الرؤية

إيصال التاريخ الإسلامي للمسلمين بطريقة جديدة فاعلة ، بكل قوائمه من شخصيات وأحداث وعبر ، ليتعرف الجيل الصاعد على المجد الثابت للأمة الإسلامية ويقتفي أثره.

الرسالة

أمة لا تعرف تاريخها ، لا تحسن صياغة مستقبلها .

الأهداف

١. تعريف الشباب بتاريخهم الإسلامي المجيد ليخرجوا منه بالأمثلة العالية في حياتهم .
٢. غرس القيم الإسلامية في النفوس عن طريق عرض الشخصيات التي تمثلها .
٣.إسقاط التاريخ على الواقع والخروج بعبر ودروس نفيدنا في واقعنا .
٤.معرفة سنن الله في الكون وأحوال الأمم والدول وتعاقبها.
٥.لكل فرد مسلم دورٌ في تمكين أمته ، فلا تستهن بنفسك ، واصنع لأمتك مستقبلاً أرقى.

للاستفسارات ودعم المشروع

mofkrt.omh@hotmail.com